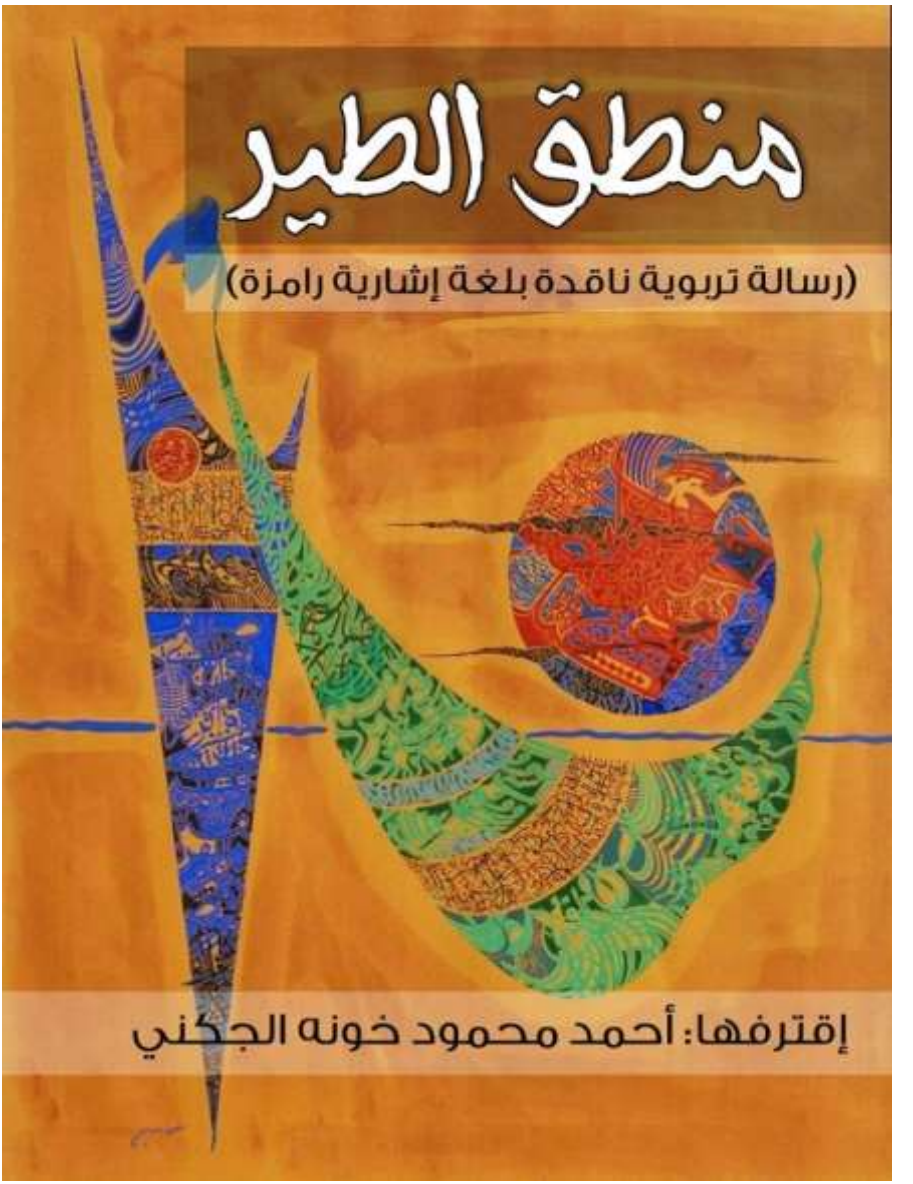
منطق الطير
(رسالة تربوية ناقدة بلغة إشارية رامزة)
إقترفها: أحمد محمود خونه الجكني

مَنْطِقُ الطَّير

(رسالة تربويّة ناقدة بلغة إشارية رامزة)

اقترفها:
أحمد محمود خونة الجكني

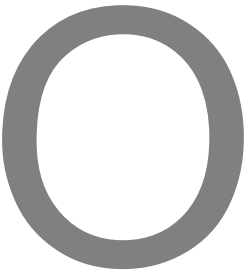

الطبعة الأولى - الجزائر
1436هـ - 2014 م

الإهداء

أهدي هذه الرسالة إلى معشر الدّعاة المخضرمين، وأخصّ منهم أُهيل التّربية ورهط أجهزتها التّنظيميّة، سائلا الله تعالى أن يحقّق بها بعض النّفع، وأن يكتب لها القبول.

وإن أُذن لي أن أقول في شأنها قولا لوجدتني أقول مثل قول الامام الحافظ السّيوطي رحمه الله حين أكمل ألفيته المنظومة في علم البلاغة والمعاني والبيان الموسومة ب " **عقود الجمان**" والتي قال في شأنها :

أُرْجُوزَةٌ فَرِيدَةٌ فِي أَهْلِهَا * إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي فَنِّهَا كَمِثْلِهَا

بِكْرٌ مَنِيعٌ سِتْرُهَا لِمَنْ دَنَا * وَمَنْ أَتَاهَا خَاضِعًا نَالَ الْمُنَى

زَفَفْتُهَا لِمَنْ نُهَاهُ رَاجِحُ * وَمَهْرُهَا مِنْهُ **الدُّعَاءُ الصَّالِحُ**

عَلِّيْ إِذَا صِرْتُ قَرِينَ الرَّمْسِ* تَنْفَعُنِي دَعْوَتُهُ فِي بُؤْسِيْ

وَأَحْمَدُ اللهَ عَلَى الْإِتْمَامِ * حَمْدًا يَفُوقُ الْبَدْرَ فِي التَّمَامِ

مُصَلِّيًا عَلَى نَبِيٍّ قَدْ عَلَتْ * أَوْصَافُهُ بَيْنَ الْوَرَى وَكَمَلَتْ

***

أرجوها بها ذلك، وألتمس الدّعاء الصّالح أنا أيضا ممن انتفع بها، وأستغفر الله تعالى من كلّ ذنب وأتوب إليه.

مقدمة

بسم الله والحمد لله الذي بنعمته تتم الصّالحات، **أمّا بعد؛**

❑❑ فاستجابةً منّا لرغبة بعض الأخيار النّاصحين الذين لا يسعنا إلاّ طاعتهم، فقد شرعت بعون الله تعالى في تجميع بعض المقالات القديمة وإعدادها للنشر والطباعة **تعميما للفائدة، وتسنيما للمائدة،** كما كان يقول بعض أشياخنا يرحمهم الله.

وتأتي معاني هذه **الرسالة الأولى** بهذه اللغة الإشاريّة التي نُجريها على لسان الطيّر وبمنطقها، بعد أن استفدنا أغلب معانيها من أفواه الدّعاة أهل التّجريب، وكان أكبر اجتهادنا فيها كامنا في تأملاتنا لدواوين فيلسوفنا الشاعر الكبير محمّد اقبال يرحمه الله، وجلب الشواهد الرمزيّة من شعره، لأن معانيه ومعاناته لم تكن أبدا بعيدة عن معاني الدّعاة ومعاناتهم.

وقد كنت في الابتداء أحسب أنّي سابق في إجراء هذه المعاني على لسان الطير، ولكنّني وجدت صاحب كشف الظنون يزعم أنّ شاعرا قديما من شعراء السلطان العثماني سليم المطلوب واسمه "شمسي" قد سبقني مبكرا في نظم كتاب كامل له بلغته العثمانية أطلق عليه **"ده مرغ"** وضمّنه هو الآخر نصائح أجراها على لسان الطيور.

وفي الختام أزعم أنّ بعض القراء الكرام من غير أهل المعاناة سيقولون إنّ هذه الرسالة متكلّفة جدًّا، وأنّ معانيها مغرقة في الرّمز، وصدقوا في ذلك لكن أهل المعاناة من الدّعاة سيتناوشونها من قريب وسيجدونها فيها بحول الله تعالى صدى لنجاويهم النّاقدة لبعض المسالك التّربويّة، وستكون معانيها بإذن الله تعالى قريبة منهم كلّما لبثوا معها قليلا يتأملون تراكيبها وتراجمها ورموزها الإشاريّة. **والسّلام.** ◙ ◙

❑ حلْقة..ٌثمّ حاءُ حلْقٍ ...فتحليقٌ

للدّاعية المتفرّد بالخلال والمناقب أوصافٌ كثيرة وألقاب؛

فهو" **النّخلة"** الرّامزة لبركة الدّاعي إلى الله تعالى وإلى كثرة نفعه وخيره، إذ في الشّجر أشجار كثيرة لا نفع فيها ولا خير [1]

وهو أيضا **"المعدن النّفيس"** لحديث { **تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ ، فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، إِذَا فَقِهُوا}** [2]

وهو كذلك **"الراحلة"** من الإبل لحديث { **تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة }**[3] الدّال على ندرته في النّاس كندرتها هي في الإبل..

وبناء على هذا فلا ينبغي لأجيال الدّعاة الصّاعدة أن تغفل عن هذه الأوصاف الشّريفة، والتّشبيهات البديعة التي أطلقها عليهم نبيّهم عليه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم .

ولا يليق أيضا بالمخضرمين منهم أن يقصُر فهمُهم دونها، بل عليهم أن يُجددوا ضرب أمثالها، وأن يُحسنوا توظيف إشاراتها في تبليغ المعاني الدّعويّة بعيدا عن رصد الكائدين، وذلك بوضع كلّ لقب منها في محلّه ؛ فالرواحل مثلا من الإبل أنواع كثيرة ؛

- فمنها السّائبة في البوادي التي لا تعرف سير القوافل ولا انتظامَها .

---

(1)- لحديث " مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَلَا يَتَحَاتُّ" وحديث " مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنْ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ ، وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ " وحديث "مَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ" وكلها في البخاري

(2)- متفق عليه

(3)- حديث متفق عليه واللفظ لمسلم

- ومنها المقطورة المُنتظمة التي سلكت..فعرفت.. فالتزمت.

ولمثل هؤلاء المنتظمين فقط نكتب هذه المقالة التي ستأتيهم بوصف جديد من أوصافهم، وستحاول استكشاف **مواقع أمثالهم من الأفراد النّبلاء داخل القافلة الدّعويّة، وفيها أيضا مؤانسة ومكاشفة** بل فيها تحريضٌ وتأييد لكلّ مبدع منهم، لم يعرف إخوانه قدره ولا قدر اجتهاده..

وقد أوردنا معانيها في حبكة أسلوبيّة شاعرة، تحاول أن تكتال من حكمة إقبال ومن شعره الرّمزي أجوده.

فاعرف ذلك منها أيّها الأخ، وكن منها على بالٍ، فلمثلك كتبنا، ولأمثالك سنفشي شيئا من أسرارنا لتعيّ شيئا من **موازين الدّعاة المنطقيّة** التي أفدناها هذه المرّة من **حلْق** طيّرٍ صدّاح، ومن **تحليق** أخر سيّاح.

❑ ألم يروا إلى الطّير..؟

إذ لا تزالُ أسرابُ الطيّورالمختلفة تنتصبُ في مقامات التّعليم لتهدي بني الإنسان كلّهم، وتبذل لهم التَّعليم والتّربيّة العمليّة الصحيحّة، بلْ لايزال في النّاس إلى يوم الناس هذا بقيّة ممن يتطيّر بأصواتها وألوانها وجهات سيرها؛ فيربط حركته بحركاتها، وآماله بفكّ بعض رموزها، فيجعل الغراب مثَلاً دالا على الاغتراب، والهدهد فألا للاهتداء،...ونحو هذا وذاك.

وأنا لا أريد بهذا الكلام تزيين تلك العقائد الوثنيّة الجاهلة المُضْحكة، ولكنّني **أزعم أنّ من جوانب النّقص التي ارتكبها مُربونا، أو أهل التربية معنا أثناء تنفيذهم لمناهج التربويّة الدعويّة المعاصرة، أنّهم لم يستثمروا بعدُ تلك المعاني القرآنيّة الرمزيّة التي يحكمها منطق سمّاه القرآن الكريم بمنطق الطيّر، وأشار أنّ سيّدنا سليمان عليه**

السّلام تنقّب بمنقبة فقهه لمقتضياته التي عَلِمَها بتعليم من العليم الخبير سبحانه.

ويُراد اليوم لدعاة الإسلام أن يتعلّموا شيئا من هذا المنطق فما بالهم يا أخي لا يفعلون؟
"أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (4) .

فإنْ وافقتهم - أيّها الأخ الكريم - ولم تستسغ أنت أيضا مزاعمنا هاته، أو ربّما استعجلتَ فنسبتها إلى الشّرك والتّطيّر، وأردت أن يّطمئنّ قلبك إلى مغزاه؛ فتعالى معي، أوْ" **فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "** (5) .

وإيّاك مرة أخرى أن تستغرب اقتباسنا القرآنيّ هذا، فنحن دستورنا القرآن كما قد علمت، بل نحن في هذا كما قال اقبال:

نحنُ في الإسلام أبناءُ الخليلْ * من "أبيكمْ "خذْ إذا شئتَ الدليلْ (6)

نحنُ قومٌ قد جهلنا أصلنا * نحن طيْـرٌ قد أضعنا عشّنا (7)

فليس أمامك إذًا إنْ أردت فهم كلامنا ــ أيّها النبيل ـــ إلاّ أن تسلك **جبال معانينا الأربعة**، وتضع عليها أجزاءً من هذا الطيّر الذي اخترنا لك منه نحن أيضا أربعة أجناس ، ولكننا كفيناك مشاقّ إصرارهنّ إليك..

- أولها هذا **الغراب الأسود** ذو الظفر الغليظ...
- ثمّ ذاك **الهدهدُ** الجميل الذي تراه يختال بريشته، ويزهو...

(4)- سورة النحل الآية 79
(5)- سورة البقرة الآية 60
(6)- المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 196/1
(7)- المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان رسالة الخلود 315/2

- والثالث **ديك فصيح** اللسان، وعُرْفُه أحمر...
- أمّا الرابع فخلقٌ آخر من أهل العُلُوّي اسمه **الشّاهين**[8] .

فإن كنت أيّها الأخ ذا همةٍ، وحرصٍ، فاصبرْ مع هذه الصفحات قليلا لتدرك المعنى الذي نريد، وإنْ كنت غير ذلك ـ وحاشاك أنْ تكونَهُ ـــ فنقول لك ابعدْ عن مقالنا ، وعن همُومنا التي سقناها عبر هذه الألفاظ المتكلّفة.

وأعلمْ حينئذٍ أنّك لست أهلاً لبوحنا لأنّك قد استحلت عند شاعرنا اقبال إلى طراز من النبت لا يرجو النّماء، فالوردة التي لا تضمر في آملها أن تصير روضة من الأزهار شبيهة عندنا بالفرد الذي تكاسل عن مقتضيات دعوته ولم يعرف " فنون التجميع" ولا "فقه الاصطفاء" فإنه غير مؤهل ليستمع لهذا الكلام :

ليس **أهلاً** لسحابي زهرةُ *** ليس فيها **لنموّ** روضةُ [9]

أو نقول له بلغة الطّير المرْموزة [10] :

أنتَ إنْ لم تكن طيرا ويحكا *** فعنْ **الغار** فابعدْ عُشّكا

وأنا على يقين أنّ أهل الوعيّ من دعاة الإسلام، لا ينكرون شرطنا الذي اشترطناه في هذه المصاحبة القلبية، فقد أخبرني إقبال قائلا لي قد:

وعى **الطائر الألمعيّ** الكلامْ *** وأبصر ما قلته في الخصامْ

فأهوى إلى ريشه ينقـــرُ *** وقـــال **مقـــالك** لا أنكرُ[11]

(8)- الشاهين هو طير من الجوارح والسباع من جنس الصقور، يضرب مثلا للعلو والشهامة.
(9)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 129/1
(10)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 170/1

ولكنّني وقبل أن أتركك تصعد مسالك جبال معانينا الوعرة، من المهمّ جداً أن نصارحك وكلّ رفقائنا الأخيّار **أنّ بعضا من مفردات برامجنا التربويّة، قد قتلت فينا روح الإبداع والتحليق، حتىّ جعلت من صقورنا حجالا لا تطير...ومن بلابِلَنا بُوما لا تبين... !!**

وأمسى المربي منّا وبحسن نيّة منه يخنق أفرادنا، ويقطعُ أنْفاسَهم ويحسبُ أنّه يعطف عليهم بذلك، ويبذلُ لهم التربيّة الصحيحة، وما درى المسكينُ أنّ هذه القُبُلات المتكاثرة منه قد أذبلتْ أزهارنا ولم تعد تَنْفح ذلك العطر الجميل الفيّاح:

تُذبِــلُ الأزهارَ منها القُبَلُ *** ويعاف الشَّدو منها البلبلُ

يَسلبُ السّروَ جَميلَ الميَلِ *** **ويردُّ الصقرَ مثل الحجلِ** (12)

وهذه والله أساليب في التربيّة غريبةٌ، ليست هي من منهاجنا في شيء، ولم تكنْ أبدا في جيل التّأسيس الأوّل الذين يصدق فيهم وصف إقبال حين قال(13) :

إنّ للحـــــــــرِّ مُلهـــما نظراتٍ*** تحفِز القول والفعالَ بنارِ

حَرُّ أنفـــاسه يشيع بروضٍ*** فترى الرَّوض مُزهرا من شرارِ

يَهَـــبُ العندليب سيرة بازٍ *** كيــف حالت **طباع الأطيار**

---

(11)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان رسالة الشرق 303/1

(12)- المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 150/1

(13)- المجموعة الكاملة لإقبال : ديوان ضرب الكليم 49/2

ويقول وصفا له أيضا [14]:

صامتٌ ليس يطيلُ الكَلِما *** وهْـــو بالصمت يُربي أُمَما

وله من طاقة الــرُّوح جَنانْ ***يمنحُ الخامـــل **ذوق الطيرانْ**

حوّل العصفورَ نسرًا في الفضاءْ *** فبدا للأرض تفسيرُ السماءْ

فإشاعة سير النّبلاء، وإعدادُ المربّين الملهمين، والتّدرّجُ في بلوغ مدارج الكمال،...وأمثالها هي حقائق تربيّتنا الدعويّة الأصيلة التي لن نقبل التساهل في شأنها، ولا يكفي في التحقق بها مجرد الانتماء أو دعوى الانتساب، **بل لا بد من أن يتواضع كلّ ذي طبـع منّا مهما كان موقعه القيادي حتى يجلس بين يدي مُربيه يكتال منهم، ويملأ الجعبة والجراب،** إذ هي ـ بعد الله سبحانه وتعالى ـ العاصم لنا من الزيغ والانحراف، وبها فقط نغالب الطّباع...ونذير الصراع،...ونستعذب طيران الأصفياء، ويظهر للنآس تفسير السماء..

طيرانُ الأنبياء ليس كهذا *** ما لك اليوم في السماء اجتيازُ

ليس يعني إنْ كان جدُّك بازا* أنّك اليوم بالوراثة بــازُ** [15]

نعم أيّها الإخوة الكرام، إنّ مقامات الايمان عندنا لا تُنال بالوراثة، ولا بدعاوى الانتساب إلى زمرة الأخيار والقرب منهم وأخذ الصور معهم، بل لا بد فيها من تربية منهجية وترويض وصيّاغة وصناعة..."**صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**" [16]

(14)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان ولآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 359/2

(15)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان جناح جبريل 466/1

(16)- سورة البقرة 138

كان كوني **صورةٌ لم تُكْمَل** *** كان سِقطًا مُهملا في الهمل
صيّر الرّوميُّ [17] طيني جوهرا ** من غُباري شاد **كونا آخرا**[18]

وقال في موضع أخر[19]:

قد عرتني نشوة من كأســه *** وحياة نلتُ من أنفاسه

ولكن مشكلتنا الكبرى اليوم هو عجز مناهجنا عن إنتاج مثل هذا المربّي، الذي أعيانا أمره، وأصبح عندنا طرازٌ آخر من المربّين الذين نضعُ بين يدي الواحد منهم بيضنا وزرعنا لينفخ فيه من روحه، ويبذل له التربيّة التي تجعل منه شخصيّة قويّة متزنة، فإذا به يغرقه جهلا في ماء ساكن عذب من أمواه أوديته الفقهية ، وقد انتبه إلى خطره اقبال فقال [20]عنه :

ترى النشء يملأ وجه الطريقْ *** **بروحاتِ نسرٍ وغدواتِ بازِ**

ومُفتي المدينة وادٍ سحيق *** يضجُّ بمصطلحات الحجـــازِ

ودعك الآن أيّها الأخ من مفتي مدينتنا الدعويّة هذا، وحسبك من الغيبة والنقد لمناهجنا التربويّة تلك الإشارات التي أهديناكها والخوف من العطب يملأ أجوافنا، إذ أنا أخشى من تهمة المروق الباردة[21]:

أنا من كثرة ما **حلَّقتُ** ألهبت النّواحي
فلو اجتزت قليلا **أحرق النّور جناحي**

(17)- يقصد الشيخ الصوفي جلال الدين الرومي هو محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي (604 هـ - 672 هـ = 1207 - 1273 م) عرف أباسم مولانا جَلَال الدِّين الرُّومي وهو شاعر متصوف ، وفقيه الحنفية صاحب كتاب المثنوي المشهور بالفارسية وله غيره ولد في بلخ في بلاد فارس وانتقل مع أبيه إلى بغداد، فنشأ في المدرسة المستنصرية وبعد قدوم المغول هاجر الى بلاد شتى وكان له مريدين كثر إلى يوم الناس هذا.
(18)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 132/1
(19)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 130/1
(20)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان جناح جبريل 430/1
(21)- المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان جناح جبريل 519/1

وحسبك أن تستمع إلى اقبال مرة أخرى وهو **يوصيك كيف يكون طيرانك على جبال معانينا الأربعة التي لا تزال تنتظرك**، وقد أوصاك بهذه القطعة الشعريّة من **بحر الرمل المثمّن** على غير عادة العرب في أوزان هذا البحر المسدّسة فقال لك[22] :

من نواح الطّيـر في الإحرام فاقبسْ واحرقنَّ
ذلك العُشَّ الذي شُدْتَ بمالِ الأخرينَ

وتعلمْ جاهدا **خَفْقَ جناحيك وطِـــرْ**
أنت لا تسْطيعُ **طيرا بجبال الآخرين**

ونحن نبشّرك بسهولة ذلك ـ إنْ كنت من أهل المعاناة ـ طبعا ، وهذا أوان الشروع والصعود فتهيأ وتوكل على الله تعالى.

❑ هو غرابٌ لكنّه من أهل البحث

ففي الزّمن الغابر البعيد، بعث الله تعالى غرابا يبحث في الأرض، ليعلّم بني الانسان طريقة دفن سوءاتهم، حتىّ قال سلفٌ لنا متحسرٌ " **يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي**"[23].

وكان من لطف الله تعالى **بعمّنا** هذا أنّه سرعان ما تغلّب على عجزه، فأقبل على هذا الطائرالغريب، فتعلّم منه كيف يواري سوءة أخيه.

فقياسا على هذا المعنى ندعو اليوم دعاة الإسلام إلى تجاوز عجزهم وغفلتهم ليؤذن لهم بتحصيل نصيب من هذا **العلم النّاقد** الذي إذا أتقناه فسنستر به بعضا من **سوءاتنا التربويّة**، وندفن تحت أرض جدله

(22)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان رسالة الشرق 318/1
(23)-سورة المائدة الآية:31.

الصلدة [24] كلّ **أفكـــارنا الميّتة** التي لا يزال بعض إخوتنا يصرّ على حملها بيننا، بعد أن أزكمت منها الأنوف، وتركت الناس بسبب منها يرتابون منّا ويتوّجسون خوفا من مشروعنا.

وينبغي أن نصارح أنفسنا أننا لن نطمع بتجاوز هذه الحالة الشائهة إلاّ بعد امتلاكنا **لآلية نفسية** جادة وصبورة، ناقدة ومُصَارحَة لا تبحث إلا عن حالات التورّم والتّعفن في **جسدنا الدعويّ**، لتُعْمل فيه مبضع **الجرح والتعديل، والمراجعة والتقويم...**

ومن ثَمَّ انبغى لهذه الآلية النفسية أن تكون أيضا حادّة كظفر هذا الغراب الذي ينْبشْ...ويخدشُ ويفْتّشُ...، وإلاّ نفعلْ سيحقّ علينا قول القائل **" من كتم داءه قتله"**.

ولا تغرنّك مفاضلات إقبال وعاطفياته الملتهبة حين لم تدرْك **جماليّة أظفارنا البحّاثة** فعابتها أبياته [25] :

قال: يا إقبال! ما الشاهين ؟ يبـدو كالغـــرابْ
ريشهُ يصبـــحُ تاجاً *** ريشُ هذا للتّرابْ
يطلبُ الموتى غرابٌ *** **ظفرُهُ عبْءٌ عليهْ**
وترى الشاهين يمضي *** أكـلُهُ صُنعُ يديهْ

إنّ هذا المنطق يعظنا **بضرورة تنمية هذه الروح في البحث والنقد لدى أفرادنا**، وبضرورة الصبر على هذا الطراز من أصحاب الفكر والرأي والتنظير؛ الذين ألفوا التغرّب في المخابر وبين المحابر، **حتىّ انعدمت عواطفهم أو كادتْ، وأصبح الواحد منهم جافا يابسا كأنّه مصنوع من جلود كتبه، و مزاجه أسود كلون حبره، وكلامه قاس وربما فيه نتانة لها نسب بصمغ دواته**،...فذلك هو شأن المحابر والمخابر، والسفر والأسفار ، والخطط والتخطيط...

(24)- أصل الجدال من الجادلة وهي الأرض ، فكأن المتجادلين يريد كل واحد منها اسقاط صاحبه على الأرض
(25)- المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان جناح جبريل 526/1

وما ثمّة نتانة عند التحقيق، وما ذاك بجفاف عند أهل الإنصاف، بل تلك طباع مصاحبة دائما لأهل هذه الصنعة البحثيّة، حدثنا عنها قديما الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فقال:

" رآني الشافعي وأنا في مجلسه وعلى قميصي حبر، وأنا أخفيه، فقال يا فتى لم تخفيه وتستره؟، إنّ الحبر على الثوب من المروءة، لأن صورته في الأبصار سواد، وفي البصائر بياض" [(26)].

وزادنا خالد بن يزيد أنّ **" الحبر في ثوب صاحب الحديث مثل الخَلُوق في ثوب العروس "**.[(27)]

وفاخر غير واحد من العلماء النبلاء بتلك الأوساخ التي تطال أثوابهم أثناء الطلب وشبهوها تارة بالقلادة في عنق الحسناء، وتارة بالعطر في ثوب العذراء، وكان الامام أحمد يقول **"المحابر سُرُجُ الإسلام "**، وقال ابن معين **"اظهار المحبرة عزٌّ "**، ورأى الثوري أنّها **" رأسمال كبير "**.[(28)]

وأنشد الشاعر أبو عبد الله البَلَوي [(29)]:

مِدادُ المحابر طيبُ الرجال * وطِيب النساء من الزعفران**
فهــذا يليـــق بأثواب هذا * وهذا يليق بثوب الحَصَـــان**

وقيل إن عبد الله بن سليمان رأى في بعض ثيابه أثر صفرة، فأخذ من مداد الدواة وطلاه به، ثم قال المداد بنا أحسن من الزعفران، وأنشد هذا البيت [(30)] :

(26)-أنظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 251/1 وأنظر تفسير القرطبي103/6 دار الفكر
(27)-المرجع السابق
(28)-المرجع السابق نفسه
(29)-أنظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 251/1
(30)- المرجع السابق

إنّما الزعفران عِطُر العذارى * ومدادُ الدّويّ عطر الرجال**

فـي كتـابي (سـير اعـلام النـبلاء) وفـي (أدب الامـلاء والاسـتملاء) وصايا كثيرة شبيهة بوصية الامام شعبة رحمه الله تعالى التي يطلب فيها من أحدنا أن يكون رحيما رفيقا بهذا الصنف من الأفراد فقال:

"إذا رأيت المحبرة في بيت إنسان فارحمه، وإن كان في كمك شيء فأطعمه" .

بل أخبرك ابن معين أنّك **" إذا رأيت الرجل نظيف الثياب، مليح المحبرة والمقلمة فاعلم أنه لا يفلح "** .أي إنّما يكون فلاحه بتلك الأوساخ التي وصفنا .

والمغزى من هذا أيّها الدعاة والمربون هو أن تصبروا على نقد قد يكون جارح وفيه مَرارة قد يأتيكم به بعض غرابيبنا أهل التنظير والبحث واعلموا دائما أن :

الدواء المرّ للعقل الكبيرْ * فاترك الحلواء للطفل الغريرْ** (31)

أمّا أنت أيّها الأخ النّاقد، فاحذرْ أن يغرّك كلامنا هذا أو تغترّ بأظفارك أو أفكارك، فتحسب أنها شيئا مذكورا، فتطغى وتتجاوز حدودنا الشرعيّة؛ فتنبشَ قبرا، أو تنهش عرضا:

فهذا البحث في القفر احذرنّه * عليكَ بعالمٍ فيك ادخلنَّه** (32)

***

تعينك، أنتَ تلك الذاتُ، فاعرفْ ** كجبريل الأمين إذاً، فرفرفْ (33)

(31)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان: ولآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 345/2
(32)- مجموعة الكاملة لإقبال: ديوان رسالة الشرق377/1
(33)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان رسالة الشرق 318/1

وإنْ رهبت الطيران بأجنحة جبريل الأمين، وخشيت إغراب ذاك الغراب، فحسبك أيّها الرعديد أن تطير مع هذا الهدهد السّليماني فإنّه:

❑ هدهدٌ يُعْربُ ولا يُغْرب

وأول حرفٍ نطق به هذا الطّير الهدهدي، يضبط لك معاني الذاتيّة والمبادأة التي حمّسناك إليها تحميسا، ويقول لك إنّها ليست على إطلاقها بل هي منضبطة **بخطوط تنظيميّة حمراء**، يبدأ طيفها بمشهد **" وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ"** [34] ، ثم تزداد حمرتُها بصراحة المساءلة القياديّة التي هي من طراز **" مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ"**[35]، ثم يميل لونها إلى الحُمرة القانية بجديّة وحزم المادة العشرين من اللائحة الانضباطيّة الناطقة ب **"لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ"**[36]...

أمّا نحن فلن نغترّ باجتهادك الفردي المبادر الذي قد تُعرب عنه بقولك المفاخر: **" أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ"**[37]، حتى تشفع لك عندنا تقارير أجهزتنا الرقابية التي بعض مضامينها تشهد له قاعدة **"فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ"**[38]، فحينها فقط نثق أن اجتهادك ليس فيه إغراب، وأنّ ريشك ريش هدهد وليس ريش غراب.

وهذا معنىً دقيق لمن تأمله، وقد نطق بمفاده من قبلُ شاعرنا إقبال، وزعم أنّ **الذات الكاملة والصحيحة لن تنمو إلاّ بعد أن يتمكّن صاحبها من مرحلة الإنضباط والالتزام وكمال الطاعة**...إذ قال [39] :

بامتثال الأمر يعلو من رسبْ * وهوى الطَّاغي ولوكان اللّهب

---

(34)-سورة ص الآية 19.
(35)-سورة النمل الآية 20
(36)-سورة النمل الآية 21
(37)-سورة النمل الاية 22
(38)-سورة النمل الاية 22
(39)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان أسرار ورموز 153/1

سخّـــر الأفلاكَ في همّته * من **ثوى في القيد** من شرعته

قد سرى النّجمُ يؤم المنزلا * **طوع قانون له قد ذُلـــلا**

ثمّ زادك من أسرار الطاعة التنظيمية أنها قد :

نَشّأتْ بالقيد حرّا مُطلقا ** أثبتتْ في الأرض سَرْوًا بَسَقا (40)

وانظر إلى هذا البيت الأخير ما أروعه، وقد أفادك أن تقيّد الفرد بقيود الجماعة لا يصيِّره أبدا عبدا ذليلا كما ظن أهل المستعجل.

بل إنّ هذه **الطاعة التنظيمية** عند اقبال **هي شرط بلوغ الكمال الانساني**، وهي التي ستَهب الفرد حريّته التامّة، مثلها مثل **ثباته** مع أفراد جماعته هو الذي سيُنمي إنسانيته ويرقّي إبداعه، مثلما تنمو الشجرة التي لولا قيود الطين والأوحال من حولها لما نمت بل لاجتثتْ من فوق الأرض فما لها من قرار.

فانتبه لهذا المعنى ـ أيّها الأخ يرحمك الله ـ ولا تُماري فيه مراء كثيرا، فهو **قانون قديم ودستور** متعارف عليه.

ثم اشكر الله تعالى على نعمه، واعرف قيمة **خلخالنا الذهبيّ** الذي منحتك الدعوة المعاصرة، واعلمْ أنَّ :

كلّ شئ فيه قانون سرى * كيف في هذي المعاني يُمترى**

ارجعنْ يا حرَّ **دستـــورٍ قديمْ** *** زَيّنْ رِجْلَك **بالقيد الوسيم**

شدّة في شرعنا لا تشكون ***وحدود المصطفى لا تعدون (41)

(40)-المرجع السابق191/1
(41)- المرجع السابق 154/1

ثمّ احذرْ أن تكون ملُولا، فتضيق من قيودنا التنظيميّة، وتقنط من شدّتها وحزمها، **وتزعم أنَّ الحريّة إنّما تأتيك حين تكون سائبا، أو أنّها تحصلُ مع العمل الفردي أو الارتجال...**

فيصير خبرك حينئذٍ كخبر ذلك **الظبي الجفول** الذي قصّ علينا محمد إقبال خبره، وزعم أنّ ظبيًّا نشأ ردحًا من الزّمن في حرمنا المكيّ، يركُض يُمنةً ويسْرةً حيث شاء في أوديتنا وبين نسّاكنا، ولكنّه سُرعان ما ملّ **سواد كعبتنا المشّرفة**، مالتْ نفسه إلى **بيت العنكبوت وخيوطها التنظيمية المنسوجة على وهن** .

ولم يدرك المسكين حينها نعمة هذا التّنسيق العام الذي كان يمدّه ويحميه، وحقَّ عليه قانون " **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**"[42] فخرج من **حرمنا التّنظيمي** هاربا يطلب حريّته المزعومة، ويريد أن يُمتّعَ عينيه بلون آخر **من ألوان طيفنا**، فتمكّن منه صيّاد ماهر وهْو بعيد من حدود حرمنا فأعمل عليه قاعدة " **فإذا حللتم فاصطادوا**" [43] فأرْداه قتيلا، وأرَاهُ لون دمه الأحمر، فاشفق عليه إقبال رحمه الله فرثاه ببيت واحد لكنه بليغ فقال [44] :

ظبْينا خاف ســوادَ الكعبة * فـرماهُ صـــائدٌ في الثُّغرة**

ثمّ أخبرنا أنّه كان [45] :

ولاؤه للغيـر كلُّ همّــه * حتّى بنى الدّير بأحجار الحرمْ**

مات، ولكنْ ما درى بموته * قد عاش وهْماً ثمّ واراه العدمْ**

---

(42)-سورة العنكبوت الآية 67
(43)- سورة المائدة الأية 02
(44)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 172/1
(45)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 354/1

أمّا أنتم أيّها القادة من الدعاة فما عليكم إلاّ أن تنتشروا في الأرض، ولا تنتظروا أن يأتيكم هذا **الطير الهارب** أو ذاك **المهديّ الغائب**، بل استكشفوا الموجود منه بكاشفة " **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ** " [46] وأوجدوا المفقود منه بوسيلة " **فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طيرا بِإِذْنِ اللّهِ**" [47]، واعلموا أنّ هذا **النّفخ التّربوي** إنما يكون في بيضنا الرخو الناشئ.

نفْحــة الأحرار تُحْيّ الأُمَما ** نفخــة الأبرار تحيّ الرِّمَما [48]

❑ ديكُنا الفصيح

وثمّة منطقٌ لطير ثالث، حدّثنا عن بعض معانيه التّابعي الإمام الثّقة أبو سلمة بن عبد الرحمن بنِ عوف رضي الله تعالى عنه فقال:

" سَأَلْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُوجِبُ الْغُسْلَ فَقَالَتْ هَلْ تَدْرِي مَا مَثَلُكَ يَا أَبَا سَلَمَةَ **مَثَلُ الْفَرُّوجِ يَسْمَعُ الدِّيَكَةَ** تَصْرُخُ فَيَصْرُخُ مَعَهَا إِذَا جَاوَزَ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ" [49].

وفي رواية[50] **"إنّما مثلك مثل الفرّوج يسمع الدّيكة تصيح فيصيح"**.

علّق الامام الباجي على هذا الأثر الباسم قائلا إنّه:

{ يحتمل معنيين **أحدهما** : أنّ أبا سلمة **كان في زمان الصّبا** ،وقبل أنّ يبلغ حدّ الجماع يسئل عن مسائل الجماع يتكلّم فيها، وهو لا يعرفها إلاّ بالسّماع من غيره، **كالفرّوج** يسمع الدّيكة التي بلغت حدّ الصّراخ تصرخ، فيصرخ معها.

---

(46)- سورة النمل الاية 20
(47)-سورة آل عمران الأية 49
(48)-اللمعات – لعبد الوهاب عزام.
(49)- رواه الإمام مالك في الموطأ، تحت رقم 93 ،كتاب الطهارة، باب الغسل إذا التقى الختانان.
(50)-سير أعلام النبلاء 290/4 مؤسسة الرسالة.

والثّاني: أنّ أبا سلمة **كان صبيّا لم يبلغ مبلغ الكلام في العلم** ، إلاّ أنّه كان يسمع الرجال والكهول يتكلّمون في العلم ، **فيتكلّم معهم }** [51]

ونحن لا يهمّنا الآن، التّرجيح بين هذه الآراء المحتملة، ولكن انبغى لنا أن نتأمّل كيف أنّ عائشة رضي الله عنه لمّا توسّمتْ في أمره وعرفت أنّه **ديك فصيح لم تتلكأ في مصارحته وتربيته بهذه المكاشفة القياديّة.**

والمعنى الكليّ الذي نريد أن نستلّه من هذا المنطق يوصينا - أيّها الأخوة - بضرورة التّواضع لبعض ناشئتنا أهل الإبداع الذين أثبتت الأيّام والمواقف أنّهم يمتلكون قدرات خاصة، تؤهّل أحدهم أن يُشْرَك في اتخاذ القرار، ويستشار في القضايا الحرجة، ويُسمع صوتُه الذي ربّما يكون فيه نوع نشاز، أو صراخ يَستوجِب صبرنا وتفهّمنا لا غير.

بل حتىّ هذه المسبّة الباسمة والمعاتبة الظريفة التي أظهرتها عائشة رضي الله عنها، لا تنبغي في حقّنا نحن لأمثالهم إذ قد صحّ عن أسوتنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال **" لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ "**[52]

حقّا إنّ الصيّاح والصّراخ له إزعاج وأيّما إزعاج، ولكن أستاذنا الكبير مالك ابن نبي يرحمه الله أخبرنا أيضا إنّه :

{علامة الحياة الأولى، وهو علامة الولادة الجديدة، فإنّ الطفل يستبشر أهله بولادته ولادة سليمة حينما يبكي} [53]

فهو إذًا دليل الحيويّة، وأمارة النّباهة والفعاليّة، التي يراها أهل التّوسم من دعاتنا في بريق عينيه الملتمعة بالفطانة، وفي فصاحة نبرته

(51)-المنتقى للباجي 399/1 طبعة دار الكتب العلمية.
(52)-سنن أبي داود ، وقد حكم الألباني بصحته.
(53)-أنظر كتاب تأملات ص 122 ، عند حديثه عن الفعالية ، طبعة دار الفكر.

التي تدلّهم على نفاسة معدنه، وصدق أهل العراق إذ قالوا في أمثالهم القديمة: **" إنّ الدّيك الفصيح إذ هو لا يزال في البيضة يصيح "** (54)

وهذه المسألة يدْركها أهل المعاناة والتّجريب من المربّين، الذين بنور فراستهم يميزون صراخه عن طنين البعوض:

بِظـاهرِ ما يراهُ القلْبُ قَيَّد ** فمِنْ ذوقٍ ومِنْ شوقٍ تجَرَّدْ

صَفيرَ الصّقر حتمًا ليس يدري ** على **طنّ البعوضة** منْ تعوَّدْ (55)

فدعهُ أيّها الأخ إذًا كي يصيح ويصيح...حتىّ إذا أعياه الصّراخ والصّياح، ألقْهُ غرفة وافية من عسل حِلق ذكرنا، ليذوق فصاحة أخرى فوق فصاحته، وعندها تخرج حاء حلْقه من مخرجها الصّحيح، وعندها فقط يكون النّجاح وينمو الجناح...ويحلو ويعلو التّحليق.

❑ لقد أبْعَدْتَ أيّها الشّاهينُ المُحلِّق❑

حدثني نبيل من الدّعاة بأنّه قال لشيخه بعد أنْ لامه على اجتهاد عالٍ أقترفه :

" يا شيخ إنّما أنا سهمٌ كان في يدك، فلا تلمني إنْ علوتُ".

وبمثل قوله هذا قال أخر(56) :

وإنّي لغرسٌ أنت قدْماً غرسته وربيّته حتّى علا وتمدّدا

لأنّك أعلى النّاس نفسًا وهمّةً وأقربهم عرفا وأبعـــدهم مدى

---

(54)- .....

(55)- المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان هدية الحجاز 440/2

(56)-.....

وما أنا إلاّ دوحة قد غرستـها وأسقيتها حتّى تمادى بها المدى

وبمثل هذا الأدب الرّفيع الذي نطق به هؤلاء النبلاء، ندعو كلّ أخ مبدع ظلمه إخوانه، ولم يعرفوا له فضله أن يُنادي كبيرهم قائلا [57] :

أنتَ صيّرتني لقوسك سهماً * كيف أرْمي إن لم أُشدَّ بقوسي**

أنت قدرْت لي الأمانة عبئاً * فأعنّي وامدد ببأسـك بأسي**

واصطنعْ للوجود قلبيَّ شمسا ***لأنيرَ الوجودَ ما دمتَ شمسي

وإنّها لمحاججة قويّة نطق بها هذا المُلهم الأخير، واختصر بها منطق طائرنا الرابع المحلّق، الذي سبق وأن منحناه إشارة الضُّوء الأخضر، وحرّضناه على البذل والاجتهاد...**فلمّا بلغ ذروة التّحليق**، قمنا نلومه ونخطئه ؟ !.

بالأمس القريب فقط ناديناه [58] أنْ يّا:

أيّها الشّاهين **ما هذا الجمودْ** *** أين منـك البأسُ أو **أين الصّعود**

يائسٌ أم أنت **مقصوصُ الجناح** *** أم خشيت الوثبَ في هوج الرّياح

ما شكا مخْلبـك النّسر ولا *** فرَّ من عزمك طيــر في الفلا

الجبال الشّمُّ والآفـــــاق لكْ *** أيّها الهـــارب من أوج الفلكْ

طِرْ إلى النَّجم وحلِقْ من جديد *** في الفضاء اللازورديِّ البعيد[59]

(57)-ديوان قلب ورب للشاعر عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله ص ،طبعة دار القلم ط.الأولى 1990 .
(58)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 350/2
(59)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 350/2

واليوم بعد أنْ حلّق وابتعد نلومه، على عيوب صغيرة، اقترفها ولم نغفرها له، بل أحصيناها عليه إحصاءً، ولم يشفع له عندنا لا اعتذاره الذي ألقاه، ولا قَدَره الذي أعلاه، فجعلَه " يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ" [60] وقلَبَ "صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً " [61] لا يطيق لفظة تأنيب بلْه حكم تثريب.

ويشهد على هذا الذي نقوله، خبرٌ طريفٌ لطيف، حدَثَ للإمام مالك رحمه الله مع واحد من أنجب تلامذته؛ اسمه عبد الملك ابن الماجشون يرحمه الله تعالى، رواه لنا ابن الحارث رحمه الله فقال:

{ كانت لابن الماجشون **نفسٌ أبيّة،** كلّمَهُ مالكٌ يوما، بكلمة خشنة، **فهجره عامًا كاملا،** استبعد عليه الفرق بين مسألتين، فقال له: أتعرف دار قدامة، وكانت دارًا يلعبُ فيها الأحداث بالحَمَام } [62] .

قال البرْزلي: { قيل: إنّ مالكاً رمى عبد الملك بدار قدامة، **لأنّه نسبه للصغر واللعب** } [63]

إنّ هذا المنطق ليعظنا معشر القادة أن نتوب من تصرفات لنا كثيرة، جعلت الثّقات يهربون، والمبدعين يتبلّدون، والمقدّامين يتوارون، حتّى لا يطالهم جميعا إتهامنا الجاهز البارد، بل بعض تصرفاتنا جعلتْ بعض صقورنا تهاجر ثغرها الحساس ، وتأوي إلى أوكار الغِربان :

منزلة الشّاهين في أوج السّحاب ** ما له يسكن في وكر الغراب؟[64]

ونحن وإن ناصرناه وأدنّا تلك التّصرفات، فإنّنا لن سوّغ ولن نقبل منه هذا الركون أبداً، بل ها نحن ندعوه في هدوء أن يّا أيّها الشاهين العظيم :

---

(60)-سورة الانعام الاية 125
(61)- سورة الانعام الاية 125
(62)-التراتيب الإداريّة للكتّاني 100/2 طبعة دار الأرقم ، وانظر كذلك فتاوى عليش 267/1
(63)- المرجع السابق 100/2
(64)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 350/2

لم يزل في الرّوض ظل وثمرْ ** فالتمس عشّك في أعلى الشجرْ[65]

فنسيانُ بعض قادتنا لفضلك وسابقتِك، قد سمعتَ استنكارنا له، ومطالبتَنا بتسريع التوبة منه، لكنّه لا يعطيك أبدا مبررا للتّلهي عن السير في الركب كالعندليب، ولا الدخول إلى دار ديكٍ بلْه دار قدامة:

فيم هذا النّوحُ مثلَ البُلبل؟ * وإلام العيشُ بين الظُّلل**

قد علا جدُّ **الهُما** [66]من صيدكا ** اجعلنْ في الطود مثوى عُشِّكا

واعلم يرحمك الله أيّها الأخ العزيز أنّ إقبالا قد ناداك نثرا ونظما فقال لك : **{ يا أيّها الشّاهين : عشّك ليس في قصر الملوكْ * لو كنت شاهين الجبال حقيقة ما أمسكوكْ * فارجع لعشّك يا عزيزي}** [67]

ولمثلك كذلك أرسل الإمام الشهيد رحمه الله رسالته الكريمة **" هل نحن قوم عمليون"** التي جاء فيها:

{ لهذا الصِّنف : الكريم المعادن، النفيس الجواهر، العالي الهمّة، النبيل النفس، الذي يوّد العمل ويتمنّاه، ويقعد به عن تحقيق أمنيته قول القائل:

زهَّدني في النّاس معرفتي بهم
وطول اختباري صَاحباً بعد صاحب

فلم تُرني الأيّام خِلاًّ تَسُرّني
مبـاديه إلاّ ساءني في العواقب

---

(65)-المرجع السابق 362/2

(66)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 152/1، والهُما طير خرافي في الأساطير القديمة يزعمون أنهّ إن سقط ظله على إنسان صار ملكا، والشاعر هنا يخاطب المسلم قائلا إن الهما هذا الذي يمنح الناس الحظوظ قد علا حظه هو نفسه بأنك كان صيدا في يديك إذ أنت أعلى منه، فارفع عشك فوق الجبل

(67)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان جناح جبريل 507/1

نقول : أنت الآن أمام **دعوة جديدة** وقوم ناشئين يدعونك إلى العمل معهم، والانضمام إليهم، والسّعي بجوارهم إلى الغاية التي هي أمل كلّ مسلم، ورجاء كلّ مؤمن...**هذه جماعة الإخوان يا عزيزي،** في كلّ مكان تنادي الناس، وتفتح لهم قلبها وبابها ونادِيّها، فهلّم فإن رأيت ما تحبّ فعلى بركة الله، وإن لم تر ذلك قلْ كما قال بشار:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها

خرجت مع البازي عليّ سواد } [68]

ونحن والله ما أنكرناك بعدُ، وما جحدنا فضلك ولا نسيناه، بل هي غفلة ارتكبها فرد واحد منّا في حقك، وكان يسعك أن تحلم وتغفر... ولكنّ طبع التّحليق غلب عليك يا عزيزي، فضاق صدرك، لكنّ آفاقك لا زالت بحمد الله واسعة ، فأنت :

إن تكنْ صقرا فلا تغش البحارْ*** **ليس إلاّ خلوةَ الصحراء دار**[69]

إذ لكلّ بيئته أيّها الشاهين فلا تجعل همّتك سافلة ولا تنْكسر، **ولا تقنط من حكم قرارٍ عجول لم يعرف قدرك، واصبر على تنفيذه واعتبره من القدر الربّانيّ الخفيّ الذي يبغي ابتلاء معدنك.**

واعلمْ أنّ واقع أمتنا يمنع عليك التراخي والانزواء، وأنّه لا زال في الأمر إمكانية للإستدراك فـ :

لا تسرْ واهن الخطى كبغاث الطيـــر بين الطلول والجدران

كن نظير الشاهين في القمم الشمــاء لا في مسارب الوديان[70]

* * *

(68)-رسالة هل نحن قوم عمليّون ص 62
(69)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان رسالة الخلود 221/1
(70)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 350/2

أمنْ سطحٍ إلى سطحٍ تطيرْ بهذا ما سمتْ قطّ الصّقور

إذا ما كان صيدك بعضُ ريشٍ فخير منه موتٌ في الوكورْ[71]

ثمّ انبغى لك أن تعلمَ أيضا أنّه:

إذا ضاع عشٌّ فلا تكتئبْ ففي روضنا ألف عشٍّ لكَ

ولولا بساتينُ أخرى هناكَ لكنتُ بكيت له مثـــلك

****

فطرْ ليس للباز أن يستريح **ولا تبك عشًّا رماه القضاء**

ففي دربنا ألف قلب جريحٍ وألف مناسبة للبـــكاء [72]

نعم أيّها الأخ هو ذاك، فلا تكلّفنا ما لا نطيق، ولا تُغْلي سعر رضاك كثيرا، فهمومنا كبيرة ونحن مثلك:

إنّنا نشكو تصاريف القضاءْ ** أنت **تُغْلي السِّعرَ** والأيدي خَلاء[73]

****

أنت إنْ كنت ترابا هيِّنا ** فليضع غيرُك منك اللبنا [74]

حرِّرنْ نفسك من يأسٍ وغمّ ** أنت بأسٌ نائمٌ قمْ لا تنمْ [75]

(71)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان هديّة الحجاز 479/2
(72)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان جناح جبريل 453/1
(73)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان الأسرار والرموز 176/1
(74)-المرجع السابق 158/1
(75)-المرجع السابق 161/1

قمْ فشيّد عالماً دون مثيل ** وخُضِ النّار وأقدمْ كالخليل [76]

فلا تستكثر علينا هذا أيّها الأخ ولا تقل" أنّى لي " أو هو فوق طاقتي، فتلك كلّها أعذار واهية، قد تهوي بك على الارض، فأنت الشاهين وقدرك العلو فقط:

وتؤتي الشواهين عون الجناح ** لتنـزلَ منزلها في القمم[77]

وقد حكى لنا إقبال خبر نسر عجوز مجرّب نصح أترابك وأقرانك بمثل نصيحتنا فجاء في نصحه الأتي: [78]

قال **للبازِ الفتى** نَسْرٌ عجوز * أنت في الجوِّ كما شِئْتَ تجوزْ

لي رموزٌ كنتُ قد حصَّلتُها * من شبابي فاغتنمْ هذي الرُّموزْ

لا تقلْ أصلي وفصلي أبداً * قيمةُ الشَّاهينِ في أخـــــلاقِهِ

إنَّما الشَّاهين من يَحْرُقُه * دمُهُ الشَّخصـــــيُّ في أعماقهِ

قسوةُ التّدريب روحُ السُّؤددِ * لا تضيِّعْه سدىً هذا الكلامْ

سترى قيمـــته يا ولدي * حين تنقضُّ على فَرْخِ الحمامْ

ما أرينا فرحةً أمتعُ منْ * فرحةِ المنقضِّ من أفْقِ السَّماءْ

فـــــــرَحٌ والله لا يعْدله * فَرَحٌ ، حتى ولا سفكُ الدَّماءْ

(76)- المرجع السابق 158/1
(77)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان جناح جبريل 401/1
(78)-المرجع السابق 508/1

فدونك إذًا التّحليق ثم الإنقضاض، واعلمْ أنّه:

ليس يهوى الشاهين من طول خفق * **يا أخا العزم لا ينلْك التُّراب** [79]

❑ ولكنّ الطيور على أشكالها تقع[80]

فهي مهما علتْ وتفردتْ وبسطتْ أجنحتها...لا بدّ لها من قدرالسّقوط، ولو مرّة واحدة عند السّهوة إذ لكلّ جواد كبوة، ولكلّ فاضل ذي هيئة عثرة وهفوة ...

ولا غرابة في هذا، وإنّما الغرابة في أمركم أنتم أيّها القادة من الدعاة كيف تغفلون عن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

{أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ} [81].

فمكانتهم ومقامهم وتفردهم يغفر **عثراتهم وزلاتهم** إذا كان خطؤها يسيرا و لم يتخطّى الخطوط الحمراء، إذ؛

- **فيهم النّاقد صاحب التنظير الذي تغرّب، وجال كثيرا، ورأى تجارب، وقرأ عن أخرى، فأصبحتْ له بصيرة صحيحة برؤية العيوب والمساوي، لكنّه لا يحسن طريقة تبليغها، ولفظه خشن وعبارته جارحة كأنّها أظفار.**

- **وفيهم المبادر صاحب العلاقات الكثيرة مع صناع القرار، ومع الأعيان والكبراء، ولا يمكنك أنت أن تستغنى عنه، لأنّه منك ثم هو يأتيك دائما بالجديد من المعلومات والمعطيات التي لم تحط**

(79)- المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان ضرب الكليم 63/2

(80)- هذه الشطر أجريناه على غير مجراه، وجعلنا معناه أن الطيور مهما اختلفت أشكالها لا بد أن تقع على الأرض من سوء طيرانها ولو مرة في حياتها.

(81)-روى ابن حبان في صحيحه رواية أخرى جاء فيها (أقيلوا ذوي الهيئات زلاتهم).

بها خُبرا، ولم تدُر بخلدك، لكنّه ربّما فاخر وقال "أحطت بما لم تحط به ".

- **وفيهم آخر لا يزال صبيًّا مراهقا أو مستعجلا، وربّما رفع صوته على من كان يُحْسِيه الحساء، وربّما صرخ وصاح، ولكنّه لا يقصد إهانة أحدٍ، وإنّما قَدَرُه أنّ فطنته جاءت مبكرة قبل أن يكتمل جسمه.**

- **وفيهم رابع صاحب اجتهاد وعلم وشهادة وهيبة عند الناس، يأخذ دائما بالعزائم، وهو لا يخرج عن خطة، وذنبه فقط أنّه يحبّ أن يعمل وحده، ولا يقبل مذمة ولا مراجعة.**

- **وفيهم خامس حمامة مسجدية، لكنّه بليد وساذج، ما استطاع أن يُطوّر فكره، لكنّه يُحسن الرّكوع الطويل والسجود الطويل، وتدمع عينه إذ دمعك عاصٍ، ويرتفع بكاؤه وقلبك قاسٍ.**

- **وسادسهم مألوف محبوب، أنيق على الدّوام، من أهل الزّهو عندليبيٌّ الطّبع أباح لنفسه سماع الغناء، تعجبك بسمته عند أبواب المساجد، وإذا اقتربت منه كرهت رائحة نفخ الدّخان التي علت ريشه من كثرة المخالطة.**

- **وفيهم آخر سابق بطيران، وقد انكسر جناحه، ففتر وأصبح داجنا مع الدواجن، و قاعدا مع القواعد، بعد أن كان منه التحليق العالي، ولكن يشفع له عندنا مكوث السّجن و أثر السّياط التي احتفظ بها جلد ظهره الشريف .**

- **وفيهم آخر ألفَ الهجرة الموسميّة، كان له رأيٌ مخالف عرضَهُ علينا فأسقطه إجماعنا الشوري، فحزن لذلك وابتعد عن عشّنا في لحظة حرجة، فهذا ينبغي أن نرفق به، ولا نهجره كهجره لنا، وقد حان لكل الطيور المهاجرة أن تعود.**

❖ **وفيهم أخر مسكين موسوس يخشى الرياء، لم نكشف قدرته ولم يقترح علينا معاونته، فأضعناه بسبب الغفلة وتركناه يبكي قدره ويقول:**

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا * ليوم كريهةٍ وسداد ثغر**(82)

فهؤلاء جميعهم من ذوي الهيئات الذين ينبغي أن نعرف فضلهم، ونقيل عثرتهم، ونتوب إلى الله من ظلمهم، وتنفيرهم وقد أوصانا المصطفى الحبيب أنْ: **{اقروا الطيّر على مكناتها}**(83)

فهذه أيّها الأخ بعض المعاني من **فقه الطيور** الذي ينبغي أن نعلمه ونذيعه، فإذ استعذبت منطقها وسررت بما فيها من جيد المعاني فلا تجعل معانيها حديثك لكل أحد و:

لا تفش للأنعام أسرار الأسو د ولا **حديث الصقر للغربان** (84)

إذ:

ليس كل الخلق أهلا للعهود*** لا تبح بالسّر إلاّ للأسود(85)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(82)-هذا البيت للعرجي وقيل لأمية ابن أبي الصلت
(83)-صحيح أبي داود ، ومسند أحمد وصحيح ابن حبان
(84)-المجموعة الكاملة لإقبال: ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق 343/2
(85)-المرجع السابق 345/2